بلاغة الافتنان

دراسة تحليلية في شعر

زهير بن أبي سلمى

عبدالواحد الدحمني

الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بلاغة الافتنان

دراسة تحليلية في شعر زهير بن أبي سُلمى

عبد الواحد الدحمني

دراسة مهداة إلى الأستاذ الدكتور محمد الأمين المؤدب

صدرت هذه الدراسة في مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، العدد 47، الإمارات العربية المتحدة، 1435هـ/2014م.

ملخص البحث

إن الحديث عن "بلاغة الافتنان" في شعر زهير، هو في حقيقة الأمر، حديث عن أحد أوجه البلاغة الشعرية المنفتحة على جميع الإمكانات التعبيرية والصيغ التصويرية، التي تشكل جمالية الشعر وتكشف عن خصوصيته البنائية.

وتأسيسا على ذلك، تهدف هذه الدراسة إلى بناء تصور جديد للافتنان بالبحث عن تجلياته في شعر زهير، وقد أفضى البحث الدقيق إلى وجود تمظهرات عدة لهذا المفهوم على مستوى الأغراض والأسلوب الشعري والتصوير البياني، مما حقق للشعر جمالية فنية، وخلق في المتلقي رغبة قوية في إعادة قراءة الشعر العربي القديم بمنظور مغاير لما تم اعتياده.

تقديم:

تستوجب الدراسة البلاغية للشعر العربي القديم، من الدارس الأدبي الانطلاق من تصور ينظر إلى البلاغة نظرة منفتحة لا تستند إلى قواعد وقوانين متعالية عن النص، بل بلاغة تبحث في الكيفية التي يتم بواسطتها نظم الشعر وتشكيله، وإبراز طرق صياغته، ومستويات بنائه الداخلي وأثره في القارئ.

إن حقيقة البلاغة هنا "هي التي لا تقف عند حدود "الأبواب" و"العلوم" و"المداخل" وإنما تقر بالتفنن في الصنعة الأدبية إقرارا منفتحا يساير في انفتاحه لا نهائية التعابير

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الإنسانية وإمكانيتها المطلقة"[1]، وبذلك تنفتح البلاغة على جميع الإمكانات التعبيرية ومختلف صيغ التصوير، التي تحقق أدبية وجمالية الشعر وتجعله فنا متداولا ونموذجا إبداعيا قابلا للقراءة والتذوق الجمالي، رغم اختلاف البيئة والثقافة والفترات التاريخية، وتجعل الدارس غير مدرك للهوة المعرفية بينه وبين النص الشعري العربي القديم، بل يُقبل على قراءته، وتأويله ودراسته وتحليله، قصد تبيُّن الكنه الجمالي للنص.

واستنادا إلى هذا الفهم، يمكننا أن نزعم أن دراسة بلاغة الافتنان يمكنها أن تكشف لنا عن أسرار تداول الشعر العربي القديم في العصر الحديث، رغم ما يعرفه من تعدد في وسائط الاتصال، والانفتاح على مختلف الثقافات وهيمنة العولمة الغربية، وظهور أجناس أدبية مفارقة في بنيتها لجنس الشعر، كما يمكن أن تبرز مدى الإقبال والاهتمام الذي يحظى به الشعر من قبل الدارسين عربا وعجما، وأن تجلي حقيقة الصنعة الشعرية القائمة أساسا على الافتنان في جوهرها.

- بناء تصور جديد للافتنان:

إن بلاغة الافتنان في شعر زهير تتوخى تحقيق قدر كبير من التواصل الأدبي مع نص شعري قديم، من خلال البحث عن أهم السمات الشعرية التي تعد تجليات نصية للافتنان، وذلك عبر استقراء آراء النقاد والوقوف على تصورهم في شعر أحد أصحاب المعلقات؛ فقد كان ابن الأعرابي يقول: "كان لزهير في الشعر ما لم يكن لغيره"[2]وقال "عمر رضي الله عنه لبعض ولد هرم بن سنان: أنشدني ما قال فيكم زهير، فأنشده، فقال: لقد كان يقول فيكم فيحسن، قال: يا أمير المؤمنين، إنا كنا نعطيه فنجزل، قال عمر: ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم"[3].

ولا شك أن لهذه الأقوال النقدية مسوغات اعتمد عليها كل من ابن الأعرابي وعمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديثهما عن شعر زهير؛ وهي مسوغات مستوحاة من

---

[1] - محمد أنقار، البلاغة والسمة، مجلة فكر ونقد، العدد 25، يناير 2000، المغرب، ص: 96.

[2] - أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، المجلد 10، دار الثقافة، بيروت لبنان، تحقيق وإشراف لجنة من الأدباء، ط 5، 1981، ص: 322.

[3] - ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ج 1، ص: 81. الأغاني، ج 10، ص: 313.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

النصوص الشعرية لما تنطوي عليه من جوانب الصنعة والإتقان، ولما تحفل به من إمكانات تصويرية وسمات شعرية، ساهمت في تحقيق جمالية بلاغة الافتنان.

والمتتبع للنقد العربي لا يعدم أن يجد تصورات نابعة من صميم التفكير البلاغي العميق في شعر زهير، بما يحفل به من سمات شعرية تشكل في مجموعها أهم القضايا الفنية والموضوعية التي يقوم عليها الشعر؛ من حيث هو صناعة وصياغة بلاغية تتطلب إعمال الفكر، وتوخي أصول الجودة وحسن التعبير.

اعتد زهير في تشكيل بلاغة نصوصه الشعرية ببلاغة الافتنان، التي تفيد ضربا من التفنن في المعاني واختلافها؛ بمعنى أن الشاعر ينوع في أغراض القصيدة الواحدة، ويراوح بين المعاني، فيأتي بالطلل والنسيب والرحلة والمديح والرثاء، فيقدم ويؤخر فيها، أو يترك ذكر بعضها، كل ذلك حسب مقصديته وخصوصيته الشعرية.

والحق أن مفهوم الافتنان، كما سلف تحديده، غير وارد في آراء النقاد؛ ولعل السبب في ذلك يعود إلى اعتبار الافتنان "أن يفتن المتكلم، فيأتي بفنين متضادين، من فنون الكلام، في بيت واحد أو جملة واحدة، مثل النسيب والحماسة، والمديح والهجاء والهناء والعزاء"[4].

فهذا التعريف في عمقه لا ينظر إلى النص الشعري في كليته، بما يتضمنه من تعدد الأغراض والتصرف في المعاني، بقدر ما يحاول أن ينظِّر لبلاغة البيت الشعري.

ولعل هذا التصور للافتنان ينسجم وروح البلاغة القديمة القائمة على الأبواب والمفاهيم المجردة؛ تلك البلاغة التي كانت تروم إحكام صنعة البيت الشعري وتأكيد جماليته في ذاته، باعتباره بناء لغويا ودلاليا مستقلا لا يحتاج إلى غيره، لما يتضمنه من الوجوه البلاغية، وحسن العبارة وجودة التأليف.

وتأسيسا على ذلك، نسعى إلى بناء مفهوم بلاغي للافتنان يطمح إلى "توظيف تلك المصطلحات وأمثالها، في دراسة النص الشعري، توظيفا جديدا، بحثا عن بلاغته، وكشفا عن جماليته"[5]؛ ولعل إبراز هذه الجمالية، والإحساس بالمتعة الفنية لا ينحصر في رصد

---

[4] - ابن أبي الإصبع المصري، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تقديم وتحقيق حنفي محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة التراث الإسلامي، الجمهورية العربية المتحدة (د.ت)، ص: 588.

[5] - محمد الأمين المؤدب، في بلاغة النص الشعري القديم، معالم وعوالم، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، المغرب، الطبعة الأولى 2010، ص: 33.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الوجوه البلاغية المعروفة وفي كثرة استعمالها، ولكنه يتجاوز ذلك إلى مدى قدرة الشاعر على الافتنان في الأغراض والمزج بين معانيها، واعتماد المتشابه والمختلف فيها؛ ومن شأن هذا الأمر أن يحفز القارئ على قراءة النص الشعري والتفاعل معه.

الفصل الأول: الافتنان في الأغراض

إن الدارس لديوان زهير، يجده ينوِّع بين أغراض القصيدة الواحدة، فيأتي بالطلل والنسيب على نهج الفحول من أمثاله، ويتخلص إلى المديح، وما يرتبط به من معاني التكسب ووصف القيم الأخلاقية التي يتحلى بها الممدوح، مع الإشادة بأقواله وأفعاله، وذكر خصال أجداده وقومه، إيمانا منه "أن التصرف في الأغراض، والافتنان فيها، والاقتدار على الجمع بينها، يحقق للمتلقي من المتعة الفنية والشعرية، ما لا يحققه له القائل في غرض واحد"[6]، ويضمن للشعر جمالية خاصة تقوم أساسا على الجمع بين المعاني المختلفة لبناء رؤية فنية، تعبر عن أهم القضايا الموضوعية السائدة في عصر الشاعر.

لقد أشار الدكتور عبد الله الطيب في سياق حديثه عن المبدإ والخروج والنهاية في القصائد الشعرية، إلى سمة الافتنان في شعر زهير دون أن يسميها؛ فقال: "هذا والمذهب الثاني في المبدإ الذي عليه أكثر القصائد هو الاستهلال بالنسيب والخروج إلى السفر وذكر الأغراض... وينبغي التنبيه على أن هذا التقسيم تقريبي فيه تجوز كثير، إذ القارئ يعلم أن الشاعر قد يبدأ في ذكر الرحلة مع النسيب أو يؤخرها إلى القسم الثالث أو يخلط بين الأقسام فيدخل بعضها على بعض، أو يحذف إحداها استغناء عنه كالذي وقع من زهير في المعلقة:

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ

بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالمتَثَلَّمِ

فإنه قد ترك الرحلة وإن يك قد أدخل بعض أوصافها فيما جاء به من نسيب"[7].

فالشاعر هنا يتصرف في المعاني، ويعمد إلى الافتنان في الأغراض، فيتوسع في معاني النسيب ويطيل، ويترك الرحلة، وينصرف إلى المديح. وإذا كانت هذه المعلقة صورة

---

[6] - محمد الأمين المؤدب، النص الشعري القديم وبلاغة الافتنان، مجلة الصورة، العدد 5، المغرب سنة 2003، ص: 15.

[7] - عبد الله الطيب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، دار الفكر، بيروت، ط 2، 1970، ج 3، ص: 871.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

من صور الافتتان عند زهير، فإننا نجده في قصائد أخرى يقتصر على النسيب بأبيات ثلاثة على نحو ما وقع في داليته التي مطلعها:[8]

غَشِيتُ دِيَاراً، بِالنَّقِيعِ، فَتَهْمَدِ

دَوَارِسَ، قَدْ أَقْوَيْنَ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ[9]

أَرَبَّتْ بِهَا الأَرْوَاحُ، كُلَّ عَشِيَّةٍ

فَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ آلُ خَيْمٍ، مُنَضَّدِ

وَغَيْرُ ثَلاثٍ، كَالحَمَامِ، خَوَالِدٍ

وَهابٍ، مُعِيلٍ، هَامِدٍ مُتَلَبِّدِ[10]

وينتقل إلى الحديث عن الرحلة، وما يتبعها من وصف الناقة ومشقة السفر، كل ذلك باعتماد المراوحة والافتتان بين معاني النسيب والرحلة والمديح.

لقد أدرك زهير أن التعبير عن القضايا الموضوعية التي تشكل البناء العام للقصيدة لن يتم إلا باعتماد سمة الافتتان والتوسع في المعاني، لما تخلقه من روح النشاط والمتعة للقارئ؛ إذ إن تمادي "استمرار الشاعر في الأسلوب على معان من شأن النفس أن تنقبض عنها وتستوحش منها"[11]، لأن النفوس تأنس للانتقال من حال إلى حال ومن معنى إلى آخر.

1- في الابتداءات:

ارتبط الحديث عن البناء الموضوعي للقصيدة أولا بالمقدمة أو الابتداء، وما يتطلبه ذلك من عناصر الجودة وحسن التأليف، فقد أجمع البلاغيون والنقاد على ضرورة تحسين الابتداءات والعناية بها، باعتبارها مفتاحا للقصائد وأول ما يتلقاه سمع القارئ. "فالشعر أوله مفتاح، وينبغي للشاعر أن يجود ابتداء شعره، فإنه أول ما يقرع السمع، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة"[12].

---

[8]- شعر زهير بن أبي سلمى، صنعة الأعلم الشنتمري، تحقيق فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة بيروت، ط 3، 1986، ص: 177.

[9] - النقيع وثهمد: موضعان. أقوين: أقفرن.

[10] - هابي: رماد. المحيل: الذي أتى عليه الحول. الهامد: المتغير. المتلبد: الملتصق.

[11] - حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 3، 1986، ص: 359.

[12] - العمدة، ج 1، ص: 218.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولعل هذه المكانة التي حظيت بها ابتداءات القصائد تعود إلى سببين أساسيين؛ أحدهما خارجي عن النص نصطلح على تسميته بالمتلقي/القارئ، الذي يعد أحد العناصر المهمة في الإبداع الإنساني، والمساهم الفعلي في الكشف عن جمالية النصوص الأدبية والتفاعل الوجداني معها، خصوصا "إذا كان الابتداء حسنا بديعا، ومليحا رشيقا، كان داعية إلى الأسماع لما يجيء بعده من الكلام"[13].

ولا شك أن الشعراء استندوا في صناعة استهلالات قصائدهم إلى عناصر من شأنها التأثير في المتلقي، تجلت في دقة التصوير وملاءمة الألفاظ للمعاني وحسن الأسلوب؛ إذ إن "حسن الافتتاح داعية الانشراح ومطية النجاح"[14].

أما السبب الثاني فإنه يرتبط بالقصيدة نفسها، وبمكانة الشعراء الثقافية والمعرفية وقدرتهم على الخلق والإبداع، فالفحل منهم كان لا يصوغ قصيدته إلا إذا ضمن جودة الابتداء ورصف حواشيه بحلل من البلاغة والفصاحة.

والدارس لشعر زهير لا يعدم الانتباه إلى عناية هذا الشاعر بابتداءات قصائده الشعرية سواء من ناحية الأسلوب واختيار الألفاظ الملائمة للمعاني، والتوسل ببعض الجوانب البلاغية من تصريع، واستعارة وغير ذلك....

ومن أمثلة العناية بالابتداء قول زهير:

صَحَا القَلْبُ عَنْ سَلْمَى وَأَقْصِرَ بَاطِلُه

وَعُرِّيَ أَفْرَاسُ الصِّبَا وَرَوَاحِلُه

فإضافة إلى عنصر التصريع وقيمته الموسيقية، "فإن قسمي هذا البيت متلائمان، فإن لفظ كل واحد منهما متوسط بين الغرابة والابتذال، وفي كل قسم منهما استعارتان، فقد تساويا في اللفظ والمعنى"[15]؛ كما نجد زهيراً يحافظ على التقاليد السائدة عند الفحول من أمثاله، ونقصد هنا الابتداء بالمقدمة الطللية على نحو ما نقف عليه في معلقته المشهورة.

لكن هذه العناية بالابتداء لا تنحصر في حدود اختيار الألفاظ وجودتها، والحفاظ على النمط التقليدي، بل تنصرف إلى الافتنان في المعاني والتصرف فيها.

---

[13] - أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1981، ص: 406.

[14] - العمدة، ج 1، ص: 217.

[15] - تحرير التحبير، ص: 169.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لقد أردك زهير أن النهج على سمت أسلوبي واحد من شأنه أن يمل القارئ ويبعده عن متابعة القصيدة؛ لهذا عمد إلى المراوحة بين المعاني؛ يقول حازم: "ولما كانت النفوس تحب الافتنان في مذاهب الكلام، وترتاح للنقلة من بعض إلى بعض ليتجدد نشاطها بتجدد الكلام عليها"[16]، افتن زهير في ابتداع أنواع من المقدمات من قصيدة إلى أخرى؛ ففي معلقته التي يستهلها بـ:[17]

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ

بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالمتَثَلَّمِ

وَدَارٌ لها بِالرَّقْمَتَيْنِ، كَأَنَّها

مَرَاجِعُ وَشْمٍ في نَوَاشِرِ مِعْصَمِ

نلاحظ أنه ابتدأها بالطلل، لكنه لم يكن يقصد الطلل في ذاته، إنما يهدف إلى أن يعبر من خلالها عن أحاسيسه ومواقفه من الحياة والمجتمع، ورغبة منه في إثارة روح الصلح ينسجم بالغرض الأساس للقصيدة؛ فزهير يمدح هنا "الحارث بن أبي عوف بن أبي حارثة، وهرم بن سنان..، ويذكر سعيهما بالصلح بين عبس وذبيان"[18]، ومن أجل ذلك سمي الطلل وما يرتبط به في الغالب من نسيب مجرد افتتاحا وتمهيدا للغرض الأساس.

أما قصيدته المدحية في سنان بن أبي حارثة، والتي يقول فيها:[19]

صَحَا القلبُ عَنْ سَلْمَى، وَقَدْ كَانَ لا يَسْلُو

وَأَقْفَرَ مِنَ سَلْمَى التَّعَانِيقُ، فَالثِّقْلُ[20]

وَقَدْ كُنْتُ، مِنْ سَلْمَى، سَنِينِ ثَمَانياً

عَلَى صِيرِ أَمْرٍ، مَا يَمُرُّ، وَمَا يَحْلُو[21]

وَكُنْتُ إذا مَا جِئْتُ، يَوْماً لِحَاجَةٍ

مَضَتْ، وَأَجَمَّتْ حَاجَةَ الغدِ، مَا تَخْلُو[22]

---

[16] - المنهاج، ص: 361.

[17] - شعر زهير، ص: 9.

[18] - نفسه، ص: 8.

[19] - نفسه، ص: 31.

[20] - التعانيق والثقل: موضعان.

[21] - على صير أمر: على طرف أمر ومنتهاه.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وَكُلُّ مُحِبٍّ أَحْدَثَ النَّأْيُ عِنْدَهُ

سُلُوَّ فُؤادٍ، غَيْرَ حُبِّك، مَا يَسْلُو

تَأَوَّبَنِي ذِكْرُ الأَحِبَّةِ، بَعْدَمَا

هَجَعْتُ، وَدونِي قُلَّةُ الحَزْنِ، فَالرَّمْلُ[23]

إن الشاعر يتصرف في معانيه الشعرية، بحيث يستغني عن ذكر الطلل، ويعمد إلى النسيب مباشرة. لكن ما علاقة النسيب بغرض القصيدة؟ ألا يلاحظ أنه يفتن في هذه الأبيات النسيبية ويورد بعض المعاني الخفية الدالة على المدح؟.

إن المتأمل في معاني هذه الأبيات يكشف عن وجود معنى ظاهر هو النسيب وآخر خفي يتجلى في المديح. ولعل الفعل "كنت" في البيت الثاني يساهم في الكشف عن هذا المعنى الخفي؛ فالشاعر يتذكر حاله مع حبيبته "التي كانت لا تصرمه فيحمله ذلك على اليأس والسلو، ولا تواصله كل المواصلة فيهون عليه أمرها، ويُشْفى قلبه منها"[24]؛ فزهير لا يهمه ماضيه وحبيبته بقدر ما ينظر إلى المستقبل (الممدوح).

وكذلك الشأن في البيت الثالث، حيث لفظة أخرى تدعم هذا المعنى، فـ"الحاجة" هنا ذات دلالة مزدوجة، تتراوح معانيها بين الغزل والمديح؛ فالشاعر غير مهتم بحاجته من سلمى بعدما أصابه منها ما أصابه، وبعد أن صحا قلبه، بقدر ما يؤكد على حاجته في الغد، الذي هو الزمن الباقي من حياته؛ فالغد هو زمن تحقق الحاجة أو الحاجات.

إن الشاعر في هذه الأبيات يمهد لمعاني المديح بمعاني النسيب، ويفتن في اختيار ألفاظ ذات ازدواجية دلالية رغبة منه في تحقيق نوع من بلاغة الافتنان القائمة على الظاهر والخفي.

ثم يقول:[25]

فَأَقْسَمْتُ جَهْداً، بِالمنَازِلِ، مِن مِنى

وَمَا سُحِقَتْ فيهِ المَقَادِمُ، وَالقَمْلُ[26]

---

[22] - أجمت: دنت.

[23] - تأوبني: أتاني في الليل. القلة: أعلى الجبل. الحزن: ما غلظ من الأرض.

[24] - شعر زهير..، ص: 31.

[25] - نفسه، ص: 31.

[26] - سحقت: حلقت. المقادم: جمع مقدم الرأس. القمل: الشعر الذي فيه القمل.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فأتى على ذكر حال تذكره لأحبته واشتياقه إليهم، مما جعله يعزم على السفر "والارتحال إلى هؤلاء القوم الممدوحين"[27]، وربما كانت سلمى فيهم، فذكر اسمها وأراد الممدوحين؛ وهكذا يتضح أن الشاعر يتصرف في المعاني ويمزج بين النسيب والمديح على نحو ما فعل في لاميته أيضا:[28]

صَحا القَلْبُ عَنْ سَلمى وَأَقْصِرَ بَاطِلُه

وَعُرِّيَ أَفْرَاسُ الصِّبَا وَرَوَاحِلُه

وَأَقْصَرْتُ، عَمَّا تَعْلَمِينَ، وسُدِّدَتْ

عَلَيَّ، سِوَى قَصْدِ السَّبِيلِ مَعادِلُه

وَقَالَ العَذَارَى، إِنَّما أَنْتَ عَمُنَّا

وَكَانَ الشبَابُ كَالخَلِيطِ تُزَايِلُه[29]

لمنْ طَلَلٌ، كَالوَحْيِ، عَافٍ مَنَازِلُه؟

عَفَا الرَّسُّ مِنْهُ، فَالرَّسِيسُ، فَعَاقِلُه[30]

فقدم النسيب وأخر الطلل، "وغير خاف ههنا أن الطلل إنما كنى به زهير عن نفسه بدليل موقعه بعد صفة نفسه بالتبدل عما كان عليه عصر الشباب"[31].

إن القراءة الأولى لهذه الأبيات والسابقة لها، تجعلنا نعتقد أنهما يشكلان مقدمتين نسيبيتين، افتتحا بهما الشاعر قصيدته في المديح جريا على عادة القدامى، خصوصا لتضمنهما معجما شعريا دالا على النسيب (صحا، القلب، سلمى، العذارى، الخليط...). غير أننا حين نستحضر غرض القصيدتين نجد أن المعاني وإن أفادت في ظاهرها النسيب، فإنها تشكل غرض المديح، "ومما يحسن ذكره ههنا أن زهيرا في قصيدتيه اللتين استهل فيهما بذكر الصحو، قد سلك مذهبا من المديح الجاد، والمطلع معشر ببعض هذا، لادعاء الشاعر فيه أنه قد غادر زمان اللهو وراءه فلم يبق إلا الجد واتباع المآثر والدفاع عنها"[32].

---

[27] - شعر زهير.. ص: 33.

[28] - نفسه، ص: 45.

[29] - الخليط: الصاحب المخالط. المزايلة: المفارقة.

[30] - عفا الرس منه: درس وتغير. والرس والرسيس: ماءان لبني أسد. عاقل: أرض أو جبل.

[31] - المرشد، ج 3، ص: 1043.

[32] - نفسه، ج 3، ص: 1043.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

2- في التخلص:

ولما كانت المعاني معرضة للشعراء، يختارون منها ما يلائم أغراضهم ومقاصدهم، عمد كثير منهم للتمهيد للأغراض الشعرية بأنواع من المقدمات لها من الدلالات والرموز ما يرتبط بالموضوع الأساس للقصيدة.

والحديث في هذا الموضوع تطلب من الشاعر براعة لغوية اصطلح عليها البلاغيون والنقاد بـ"حسن التخلص"، باعتباره يشكل افتتانا من موضوع إلى آخر وانتقالا من معنى إلى معان متعددة، "لأن الخروج إنما هو أن تخرج من نسيب إلى مدح أو غيره بلطف تحيل، ثم تتمادى فيما خرجت إليه"[33]، من مدح الرجال وذكر خصالهم ووصف مآثرهم، أو التذكير بحياتهم ومناقبهم وذكرها بمدح أو ذم.

إن الانتقال من موضوع إلى آخر، كان يتطلب عناية بالغة وقدرة لغوية متميزة توجه العملية الإبداعية. لهذا اعتنى زهير بحسن التخلص والخروج من معنى إلى آخر، إيمانا منه بضرورة مراعاة السياق والوحدة الفنية للقصيدة، والدارس لشعره عموما، لا يعدم الوقوف على حسن دقة اختيار الألفاظ وانتقائها، والافتنان في الأساليب والمعاني من أجل ضمان حسن التخلص وتحقيق جمالية النص الشعري.

وممن احتج من القدماء، وفضل زهيرا على غيره من الشعراء في بلاغة التخلص ابن أبي الإصبع المصري الذي يقول: "وأما في الشعر فأتم الناس براعة في التخلص، وأول من أحسن في ذلك من القدماء في غالب ظني زهير، حيث قال:

إِنَّ البَخيلَ مَلُومٌ حَيْثُ كَانَ وَلَـ

ـكِنَّ الكَرِيَم عَلَى عِلاَّتِهِ هَرِمُ

ولقد اتفق له في هذا البيت اتفاق صالح حيث جاء مدمجا من جهة عروضه، فامتزج المعنيان والقسيمان امتزاجا كليا لفظيا ومعنويا مع ما وقع في البيت من المطابقة اللفظية"[34].

---

[33] - العمدة، ج 1، ص: 234.

[34] - تحرير التحبير، ص: 424.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

على أن المتتبع لطريقة زهير في التخلص يجده يتوسل بطريقتين يكثر من إحداهما على الأخرى؛ فأما الأولى فتخلصه إلى الموضوع بـ"دع ذا" و"دعها"، كما في قوله:[35]

دَعْ ذَا، وَعَدِّ القَوْلَ، فِي هَرِمٍ

خَيْرِ البُدَاةِ، وَسَيِّدِ الحَضْرِ

وقوله أيضا:[36]

دَعْهَا، وَسَلِّ الهَمَّ عَنْكَ، بِجَسْرَةٍ

تَنْجُو نَجَاءَ الأَخْدَرِيِّ، المفْرَدِ[37]

غير أن هذين الإمكانيتين كما نلاحظ لم تتكرر في ديوان زهير إلا مرتين، رغم اعتباره من الشعراء المتقدمين، وأحد فحول الطبقة الأولى في العصر الجاهلي، وفي هذا ما يخالف صاحب "المنهاج" الذي ذهب إلى "أن المتقدمين إنما كانت قصاراهم في الخروج إلى المديح أن يقول: دع ذا، ودع القول في هذا"[38].

أما الطريقة الثانية والتي عليها أغلب قصائد زهير، فهي التنقل بين المعاني بتدرج غير مشعر وتلطف أسلوبي أخاذ، نحو ما وقفنا عليه في البيت الشعري السابق: "إن البخيل ملوم..." ونحو ما نقف عليه في هذا البيت بعد بيتين ذكر فيهما الطلل، يقول:[39]

أَمِنْ آلِ لَيْلَى، عَرَفْتَ الطُّلُولا؟

بِذِي حُرُضٍ، ماثِلاتٍ، مُثُولا[40]

بَلِينَ، وَتَحْسِبُ آياتِهِـ

ـنَّ، عَنْ فَرْطِ حَوْلَيْنِ، رَقًّا مُحِيلا[41]

---

[35] - شعر زهير.. ص: 115.

[36] - نفسه، ص: 230.

[37] - الجسرة: الناقة الطويلة الجسور على السير. تنجو: تسرع. الأخدري: حمار وحشي منسوب إلى الأخدر، وهو فرس مشهور ضرب في الحمرة، فنسله معروف.

[38] - المنهاج، ص: 317.

[39] - شعر زهير.. ص: 192.

[40] - ذو حرض: موضع. ماثلات ومثولا: منتصبات.

[41] - المحيل: الذي أتى عليه الحول.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثم يتخلص إلى المديح بقوله:

إِلَيْكَ، سِنانُ، الغَدَاةَ الرَّحِيـ

ـلُ، أعْصِي النُهَاةَ، وَأمْضِي الفُؤولا

هكذا يتضح لنا أن بلاغة الافتتان لا تنحصر في المراوحة بيت الأغراض والتصرف في المعاني، بل تشمل التنوع في طرق التخلص وسبل الانتقال بين المواضيع؛ ولعل هذا ما يشكل بلاغة النصوص الشعرية، ويكشف عن جماليتها القائمة على المطابقة والاختلاف.

3- في الخاتمة:

أكد البلاغيون والنقاد على أهمية الخاتمة وضرورة الإبداع فيها، باعتبارها آخر لحظات القول الشعري، واشترطوا في صياغتها صناعة خاصة تقوم على ضرب من التأمل والتدقيق.

ولا شك أن تخصيص الخاتمة بهذه العناية تطلب من الشاعر جهدا كبيرا لختام كلامه الشعري، "لأنها آخر ما يبقى من الأسماع، ولأنها ربما حفظت من دون سائر الكلام في غالب الأحيان فيجب أن يجتهد في رشاقتها ونضجها وحلاوتها وجزالتها"[42]، وتلك سمات نقف عليها في خواتم قصائد زهير، الذي لم يتهاون في إقفال كلامه بضروب من الحكمة والتأمل في الحياة والكون يتماشى مع طبيعة البيئة الجاهلية والطبيعة الإنسانية، ومع طبيعة القصيدة –كذلك– التي ارتبطت في بداياتها بالإنشاد. يقول ابن رشيق في ذلك: "أما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة، وآخر ما يبقى منها في الأسماع، وسبيله أن يكون محكما: لا يمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده بأحسن منه، وإذا كان أول الشعر مفتاحا له وجب أن يكون الآخر قفلا عليه"[43].

وتبرز أهمية زهير في إقفال كلامه، أنه لم يحصر خاتمة قصائده في أنواع معينة ومحددة، بل كان دائما ينوع ويبدع فيها من قصيدة إلى أخرى؛ يقول في نهاية معلقته التي ختمها بالحكمة:[44]

وَمَنْ يَغْتَرِبْ يَحْسِبْ عَدُواً صَدِيقَهُ

---

[42] - تحرير التحبير، ص: 616.

[43] - العمدة، ج 1، ص: 239.

[44] - شعر زهير... ص: 28–29.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وَمَنْ لا يُكَرِّمْ نَفْسَهُ لاَ يُكرَّمِ

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ، مِن خَلِيقَةٍ،

وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى، عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

وَمَنْ لاَ يَزَلْ يَسْتَحْمِلُ النَّاسَ نَفْسَهُ

وَلاَ يُغْنِهَا، يَوماً مِنَ الدَّهْرِ، يُسْأَمِ

ويقول أيضا:[45]

فَلَوْ كانَ حَمْدٌ يُخْلِدُ النَّاسَ لَمْ تَمُتْ

وَلَكِنَّ حَمْدَ الناسِ لَيْس بِمُخْلِدِ

وَلَكِنَّ مِنهُ بَاقِياتٌ، وِرَاثَة

فَأَوْرِثْ بَنِيكَ بَعْضَها، وَتَزَوَّدِ

تَزَوَّدْ، إِلى يَوْمِ المماتِ، فَإِنَّهُ

وَلَوْ كَرِهَتْهُ النَّفْسُ، آخِرُ مَوْعِدِ

ففي الأبيات الثلاثة الأولى نجد الشاعر يتوسل بالحكمة في إبلاغ المعنى، ومن شأن ذلك أن يضمن لقصيدته جودة خاصة "لأن الحكمة غذاء الروح"[46]، فالمتلقي يتأمل هذه الحكمة وما تحمله من المعاني الصادقة المعبرة عن عمق التجربة الإنسانية. أما الأبيات الأخيرة فهي مزيج من الحكمة والمدح، حيث نجد الشاعر يضمن غرضه في المدح أبياتا من الحكمة السائرة.

ولكن ختم القصائد بالحكمة لم تكن هي الصورة الوحيدة لنهايات القصائد، إذ نجد كثيرا من القصائد تنتهي بطريقة عادية كما عند الشعراء الآخرين، حيث يختمها الشاعر بمعاني المديح أو الهجاء أو غيرهما من المعاني المتداولة.

– الفصل الثاني: الافتنان في الأسلوب الشعري

انصرف اهتمام عدد من النقاد إلى النظر في أشعار المتقدمين، ورصد السمات الشعرية التي تميز أشعارهم، فكانت العناية بالأسلوب الشعري وخصائصه البلاغية أهم ما خاضوا فيه.

---

[45] - نفسه، ص: 190.191.

[46] - نقد الشعر، ص: 22.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

1- في الجزالة:

ولعل أبرز تلك السمات الشعرية الجزالة التي تفيد "المختار من الكلام... الذي تعرفه العامة إذا سمعته ولا تستعمله في محاوراتها "[47]، فقد أولى النقاد وقبلهم الشعراء عناية خاصة بهذه السمة وبالأسلوب عامة، باعتباره أهم الوسائل الفنية في صياغة الشعر؛ خصوصا أن النص الشعري لا يمكن سبر أبعاده ودلالته إلا عبر صياغته اللغوية التي يجب أن تتسم بالوضوح والجزالة.

وقد ترددت سمة الجزالة وما تقتضيه من وضوح، وابتعاد عن غريب اللغة في أقوال النقاد، فقد روي عن عبد الله بن المعتز قال:"حكى ابن سلام-أو غيره- أنه قال، مما قدم به زهير على الشعراء أنه أبعدهم من السخف، وأشدهم اجتنابا لحوشي الكلام"[48]. و"روى ابن سلام يرفعه عن عبد الله بن عباس أنه قال : قال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنشدني لأشعر شعرائكم، قلت: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: زهير، قلت: ولم كان كذلك؟ قال: كان لا يعاظل في الكلام، ولا يتبع حوشيه... ثم قال ابن سلام على عقب هذا الكلام: قال أهل النظر: كان زهير أحصفهم شعرا وأبعدهم من سخف"[49].

إن المتأمل في هذه النصوص النقدية ليستشف إحساس القدماء بجودة الأسلوب وجماليته عند زهير، وما يتميز به شعره من وضوح وجزالة، وقدرته على الابتعاد عن السخف من المعاني والألفاظ.

فقد كان زهير يتميز بطريقة خاصة في تأليف أنماط القول وصياغة الأساليب، جعلت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لابن عباس: "أنشدني لشاعر الشعراء، الذي

---

[47] - الصناعتين، ص: 79.

[48]- المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي 1965، ص: 60.

[49] - ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ج 1، ص: 63-64. العمدة، ج 1، ص: 98.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لم يعاظل بين القوافي، ولم يتبع وحشي الكلام، قال: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: زهير، فلم يزل ينشده إلى أن برق الصبح"[50].

إن شعر زهير –كما يتضح من أقوال النقاد– يتسم بالابتعاد عن الحوشية التي تجعل الألفاظ مستكرهة غير واضحة، وتذهب برونق اللغة وجمالها، ويعتد بالجزالة والوضوح؛ فالجزالة من حيث هي سمة أسلوبية تقتضي السهولة والوضوح، لأن" أجود الكلام الكلام ما يكون جزلا سهلا، لا ينغلق معناه، ولا يستبهم مغزاه، ولا يكون مكودا مستكرها، ومتوعرا متقعرا، ويكون بريئا من الغثاثة، عاريا من الرثاثة"[51].

ومن أمثلة ذلك قول زهير:[52]

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الحَياةِ وَمَنْ يَعِشْ

ثَمَانَينَ حَوْلاً لا أَبا لكَ يَسْأَمِ

رَأَيْتُ المنَايا خَبْطَ عَشْواءَ مَنْ تُصِبْ

تُمِتْهُ، ومَنْ تُخْطِئْ يُعَمَّرْ، فَيَهْرَمِ

وَأَعْلَمُ عِلْمَ اليوْمِ والأمْسِ قَبْلَه

وَلَكِنَّنِي، عنْ عِلْمِ مَا في غدٍ، عَمِي

إن زهيرا في هذه الأبيات وفي غيرها، لا يعتد باللفظ الوحشي، والمعنى المستكره الغامض، بل يتوخى الوضوح والإفهام من خلال استثماره لمعجم شعري واضح، وألفاظ بسيطة التركيب متداولة بين الناس، إلا أن تشكيلها وطريقة ترتيبها تكشف عن خصوصية ذاتية تتصل بالطاقة الإبداعية للشاعر.

ولعل جمالية الأسلوب وجزالته تكمن في مدى قدرة الشاعر على التصرف في الأساليب وابتداع علاقات متداخلة وجديدة فيما بينها؛ إذ إن التشكيلَ اللغوي جزءٌ من الصنعة الفنية التي يسعى الشاعر من خلالها إلى تصوير أحاسيسه وعواطفه، بالاعتماد على عذوبة

---

[50] - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار الثقافة بيروت (د.ت)، ج 1، ص: 81.

[51] - الصناعتين، ص:81.

[52] - شعر زهير... ص: 25. أنظر أيضا: الإمام الزوزني، شرح المعلقات السبع، تحقيق محمد الفاضلي، المكتبة العصرية بيروت، ط 1، 1998، ص:123–124.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العبارات وجزالة الألفاظ، "والقارئ لشعر زهير يرى أنه يمتاز بأمور ثلاثة: دقة التصوير، وتهذيب اللغة ثم البراعة في اختيار صفات المدح"[53].

لقد اشترط النقاد في اللغة الشعرية أن تتسم بالبلاغة والفصاحة؛ وعمل الشعراء من قبلهم ومن بعدهم على توخي هذه الصفات، إيمانا منهم بضرورة تحسين اللفظ وتوخي الجودة. فالكلام لا يكون "بليغا مع ذلك حتى يعرى من العيب، ويتضمن الجزالة والسهولة وجودة الصنعة"[54]، وما يتطلبه ذلك من انتقاء اللفظ وتنقيحه؛ و"قد كان زهير معروفا بالتنقيح. فإنه روي أنه كان يعمل القصيدة في شهر وينقحها في أحد عشر شهرا حتى سمي شعره الحولي المحكك"[55]، مما جعل "الأصمعي يقول: زهير والحطيئة وأشباههما من الشعراء عبيد الشعر، لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين"[56].

وإذا كانت الجزالة سمة خاصة بالأسلوب الشعري، فإنها تذعن في تكوينها الأسلوبي لطبيعة الأغراض الشعرية، باعتبارها موضوعات تفرض على الشاعر استخدام أساليب وألفاظ مختارة تتسم بالجزالة والحسن وتوصف بالجودة. فتشكل القصيدة وغرضها كانا يفرضان على الشاعر عناية متزايدة بالنسيج اللغوي؛ وذلك بتوفير وسائل الوضوح والابتعاد عن الألفاظ الوحشية، ومراعاة سياق القول واستدعاء ضروب من الإشارة والإيماء، لما لها من تأثيرات جمالية. يقول ابن رشيق:"وسبيل الشاعر –إذا مدح ملكا– أن يسلك طريق الإيضاح والإشادة بذكره للممدوح وأن يجعل معانيه جزلة، وألفاظه نقية، غير مبتذلة سوقية، يتجنب –مع ذلك– التقصير والتجاوز والتطويل"[57].

وربما كان زهير أكثر الشعراء انتقاءً لألفاظه الشعرية في غرض المدح، كما يبدو من خلال قصائده في مدح هرم بن سنان:[58]

هُوَ الجَوَدُ، الذي يُعْطِيكَ نَائِلُهُ

عَفْواً، ويُظْلَمُ أَحْياناً فَيَظَّلِمُ[59]

---

[53] - محمد عبد العزيز الكفراوي، الشعر العربي بين الجمود والتطور، دار القلم بيروت، ط 2، ص: 13.

[54] - الصناعتين، ص: 53.

[55] - تحرير التحبير، ص: 401.

[56] - الشعر والشعراء، ج 1، ص: 23.

[57] - العمدة، ج 2، ص: 128.

[58] - شعر زهير، ص: 104–105.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وَإِنْ أَتَاهُ خَلِيلٌ، يَوْمَ مَسْأَلَـةٍ

يَقُولُ: لاَ غَائِبٌ مَالِي، وَلاَ حَرِمُ[60]

والذي ينبغي أن يستخلص في هذا المقام، أن طبيعة المعاني الشعرية وما يرتبط بها من أغراض، تساهم في تشكيل اللغة وخصها بمجموعة من السمات الشعرية؛ مثل الجزالة والوضوح والفخامة، وإن كان ذلك يتطلب الإيجاز والتقصير وبلوغ الغرض.

2- في الإيجاز:

لقد تنبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سياق حديثه عن أشعر الشعراء إلى جملة من السمات الشعرية التي اختص بها شعر زهير؛ منها سمة الإيجاز، فقال: "وأجمعهم لكثير من المعاني في قليل من المنطق"[61].

وعلى الرغم من أن هذه السمة وغيرها تستمد خصائصها من المستوى اللغوي أو المعجم الشعري، الذي يعمل الشاعر على تكثيف ألفاظه وانتقائها، إلا أنها تعد ثمرة تأمل عميق في بلاغة النص الشعري.

إن التفاعل المباشر مع الشعر تفسيرا وتقييما، والبحث عن بلاغته وجماليته أشرف في نهايته على التنبه إلى سمات شعرية مستمدة من طبيعة القول الشعري لا من رصد الوجوه البلاغية المعروفة. فعبارة "أجمعهم لكثير من المعاني في قليل من المنطق" تشير إلى سمة أسلوبية يمكن أن نصطلح عليها بـ"الإيجاز".

لقد كان زهير يتوخى الإيجاز في شعره، وما يرتبط به من خصائص التقصير وبلوغ القصد وتكثيف وسائل التعبير بصورة غير مألوفة. وقديما قيل "أجود الكلام ما دل قليله على كثيره، وتغني جملته عن تفصيله"[62]. فاعتماد الإيجاز والاختصار وما يجري مجراهما من حذف فضول الكلام يعد من شروط الفصاحة والبلاغة، التي على الشاعر الالتزام بها لتحقيق نوع من الشعر يهدف إلى إيصال معناه والتأثير في متلقيه، لما يحتويه

---

[59] - عفوا: سهلا بلا تعب. يظلم أحيانا: يطلب منه في غير موضع الطلب. فيظلم: يحتمل.

[60] - خليل: فقير. لا حرم: لا يحرم سائله.

[61] - العمدة، ج 1، ص: 98. طبقات فحول الشعراء، ج 1، ص: 64.

[62] - الصناعتين، ص: 187.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

من ضروب البيان وجودة الكلام، وهو ما يجعل الصناعة الشعرية قائمة في أحد وجوهها على الحذف والإيجاز.

"ومن أمثلة الإيجاز الكثيرة في شعر زهير قوله:

فَإِنِّي لَوْ لَقِيتُكَ واتَّجَهْنَا

لَكَانَ لِكُلِّ مُنْكَرَةٍ كَفَاه[63]

لأن مقصوده: إنني لو واجهتك لكان عندي مكافأة لك على كل أمر يبدو منك أنكره. فقد أورد المعنى في لفظ قليل، وبهذا كان يوصف شعر زهير، لأنه كثير الإيجاز مع الإيضاح لمعانيه"[64].

ويقول أيضا:

"**أَخِي ثِقَةٍ لاَ تَهْلِكُ الخَمْرُ مَالَهُ**

وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ المالَ نَائِلُه[65]

فهذا من أحسن الكلام، يريد أنه لا يشرب بماله الخمر، ولكنه يبذله للحمد"[66]، فعبر عن كرم أخيه بلفظ موجز اعتمد أسلوب النفي وأداة التحقيق "قد".

هكذا مضى زهير في سبيل الإجادة والإتقان، فكان شعره سهل العبارة، لا تعقيد في تراكيبه، يميل إلى الإيجاز؛ فوصف أخاه "بالعفة لقلة إمعانه في اللذات وأنه لا ينفد فيها ماله، وبالسخاء لإهلاكه ماله في النوال وانحرافه إلى ذلك عن اللذات وذلك هو العقل"[67].

لقد نظر مجموعة من النقاد القدامى إلى الفضائل العامة التي يمتدح بها الإنسان، وجعلوها في أربعة قيم هي العقل والعفة والشجاعة والعدل؛ "فكان القاصد لمدح الرجال

---

[63] - لم أقف على هذا البيت في شعر زهير...صنعة الأعلم، وإنما وجدت بيتا شبيها به، هو: وإني لو لقيتك، فاجتمعنا لكان، لكل مندية، لقاء ص: 144.

[64] - ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية بيروت، ط 1، 1982، ص:212-213.

[65] - شعر زهير...صنعة الأعلم، ص: 57، ونجد عوض لا تهلك، لا تتلف.

[66] - الموشح، ص: 73-74.

[67] - العمدة، ج 1، ص: 131.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بهذه الأربع الخصال مصيبا والمادح بغيرها مخطئا"[68]، فما سبيل الشاعر إلى وصفها ما لم يعتمد الإيجاز.

يقول زهير:[69]

تَرَاهُ إذا مَا جِئْتَـهُ مُتَهَـلِّلا

كَأَنَّـكَ تُعْطيه الذي أَنْتَ سَائِلُه

"أراد أن فرحه بما يعطي أكثر من فرحه بما يأخذ، فزاد في السخاء منه، بأن جعله يهش، ولا يلحقه مضض ولا تَكرُّهٌ لفعله.. ثم قال:

فَمَنْ مِثْلُ حِصْنٍ في الحُرُوبِ ومِثْلُهُ

لإنْكَارِ ضَيْمٍ أَوْ لخَصْمٍ يُجَادِلُه

فأتى في هذا البيت بالوصف من جهة الشجاعة والعقل، فاستوفى ضروب المدح الأربعة التي هي فضائل الإنسان على الحقيقة، وزادها ما هو وإن كان داخلا في الأربعة، فكثير من الناس من لا يعرف وجه دخوله فيها حيث فيها "أخي ثقة"، فوصفه بالوفاء؛ والوفاء داخل في هذه الفضائل التي قدمنا"[70].

لقد تنبه ابن رشيق إلى أن الوصف بهذه الصفات الأربع لن يتم إلا باعتماد سمة أخرى هي المبالغة، لما تحققه من صدق الشعور ووضوح العبارة. يقول: "وزادها ما هو وإن كان داخلا في الأربعة".

إن زهيرا في هذه الأبيات يستند إلى معيار الغرض الشعري باعتباره موضوعا له تقاليده الفنية والموضوعية، التي تفرض نوعا من إحكام صنعة البيت الشعري، وصياغة معان تهدف بالأساس إلى تصوير صدق الحياة الاجتماعية؛ فكل بيت من الأبيات السابقة يحمل قيما إنسانية صور من خلالها زهير معنى من المعاني الكبرى للمدح.

---

[68] - قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، ط 3، ص: 65-66.

[69] - شعر زهير... ص: 57. متهللا: طلق الوجه مستبشر.

[70] - العمدة، ج 1، ص: 131-132.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولأمر ما حرص زهير في شعره على اعتماد المبالغة والإيجاز حتى صارا عنده من المقومات الفنية التي تشكل بلاغة النصوص الشعرية. والمضطلع على ديوانه لا يغفل هذا الجانب حتى احتج من قدموه "بأنه كان أحسنهم شعرا.. وأشدهم مبالغة في المدح.."[71].

وقد اعتد النقاد بالمبالغة وفضلوها على الاقتصاد فقالوا: "إن المبالغة أحسن من الاقتصار على الأمر الأوسط"[72]، وذلك لما فيها من مميزات إبراز الصفات والمعاني الإنسانية حتى عد عندهم الإفراط في الصفة سمة تبين قدرة الشاعر على الخلق والإبداع.

ولعل سمة الإيجاز من أبرز سمات الشعر الجاهلي، "إذ الغالب على المدح والفخر الجاهلي استعمال الأسلوب الخطابي، وطلب الإيجاز مع الوضوح وإيجاب الحقوق"[73]التي تفرض المبالغة في الوصف، خصوصا أن "المبالغة ضرب واحد من المحاسن؛ والمحاسن لا تنحصر ضروبها"[74]، بل لابد من تضافر سمات من قبيل الجزالة والوضوح والتكرار وغير ذاك مما يشكل بلاغة الشعر وصناعته.

وبناء على ذلك يكون "الإيجاز على ما ذكرناه إيضاح المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ"[75]و"اختصار بعض ألفاظ المعاني ليأتي الكلام وجيزا"[76]مع اعتماد المبالغة.

وعلى هذا الأساس يبدو لهاتين السمتين تأثير واضح في اختيار الأسلوب الشعري، الذي يسعى الشاعر من خلاله إلى خلق نمط من التعبير يجنح إلى التركيز والوصف، "حتى صار قيام المعنى الجليل في اللفظ القليل ظاهرة بلاغية ينشدها المبدع ويطرب لها المتلقي"[77]، لما فيها من دقة التصوير واجتناب حشو الكلام.

وبما أن الكلمات تشكل جزءا من المعجم الشعري الذي يوظفه الشاعر، والتي تتسم في شعر زهير بالجزالة والإيجاز والوضوح، فإن لها دورا مهما في إبداع الدلالة. فالشاعر

---

[71] - الأغاني، ج 10، ص: 322.

[72] - نقد الشعر، ص: 70.

[73] - المرشد، ج 2، ص: 546–547.

[74] - تحرير التحبير، ص: 148–149.

[75] - سر الفصاحة، ص: 217–218.

[76] - تحرير التحبير، ص: 409.

[77] - عبد الله الغذامي، المشاكلة والاختلاف، المركز الثقافي العربي، بيروت–البيضاء، ط 1، 1994، ص: 46.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عندما ينظم القصيدة يهدف إلى مقصدية تسهم الكلمات في خلقها، من خلال دلالتها المركزية. فاستعمال زهير – مثلا– لمجموعة من الألفاظ في المقدمة الطللية أو الغزلية كلفظ كلفظ "الخليط" في قوله:[78]

إِنَّ الخَليطَ أَجَدَّ البَيْنَ، فانْفَرَقَا

وَعُلِّقَ القلبُ مِن أَسْماءَ ما عَلِقا[79]

وقوله أيضا:[80]

بَانَ الخَليطُ، وَلَمْ يَأْوُوا لِمَن تَرَكُوا

وَزَوّدُوك اشْتِياقاً، أَيَّةَ سَلَكُوا[81]

فإنها خرجت عن معناها المعجمي أو المجرد الذي يفيد الشيء المختلط إلى دلالة غزلية متصلة أساسا بالنجعة، حيث يجتمع فتيان القبيلة وفتياتها... وهكذا الحال بالنسبة لأسماء النساء والمواضع وتكرارها في الشعر.

3– في التكرار:

ومن الظواهر الأسلوبية التي تشكل بلاغة النصوص الشعرية، وأحد عناصرها البارزة سمة التكرار، التي يحفل بها الشعر الجاهلي وشعر زهير خاصة. فقد اعتنى الشعراء القدامى بالتكرار لما له من قيمة موسيقية ودلالية في بناء القصيدة وتشكيل جماليتها، لهذا نجد زهيرا لم يغفل هذا الجانب.

وقد أولى بعض النقاد سمة التكرار في شعر زهير عناية خاصة؛ فالشاعر قد يسلك "في المدح والفخر مسلك الخطابة، وذلك بتعداد الصفات وتفخيهما، وعندئذ يعمد إلى شيء مزيج من التكرار الترنمي والتكرار الملحوظ...مثال ذلك قول زهير:

أَغَرُّ أَبَيْضُ فَيَاضُ يُفَكِّكُ عَنْ

أَيْدِي العُناةِ وَعَنْ أَعْنَاقِهَا الرَّبَقا[82]

---

[78] - شعر زهير... ص: 63.

[79] - الخليط: المخالط لهم في الدار. البين: الفراق.

[80] - شعر زهير... ص: 78.

[81] - لم يأووا: لم يرحموا.

[82] - أغر أبيض: بيّن الكرم مشهوره. فياض: كثير العطاء. العناة: ج عانٍ، الأسير. الربق: حبل طويل فيه حلق تجعل فيه رؤوس البهم لئلا ترضع أمهاتها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وَذَاكَ أَحْزَمُهُمْ رَأْيًا إذا نَبأُ

مِنَ الحَوَادِثِ غادَى الناسَ أَوْ طَرَقا[83]

ولا أحسبه فاتك هنا موضع الضاد من "أبيض" ومن "فياض"، والحاء من "أحزم" و"الحوادث""[84].

فالشاعر هنا يحرص على تكرار نفس أحرف، مما يعد سمة شعرية تساهم في نغم موسيقي للقصيدة، وتعمل على المساهمة في إيضاح المعنى؛ فالصوت اللغوي لا مجرداً من الدلالة، بل يروم الشاعر من خلاله تصوير عاطفة ما، حسب انفعالاته الداخلية ومقصديته؛ ومن ذلك قول زهير في معلقته المشهورة:[85]

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ

بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالْمُتَثَلَّمِ

وَدَارٌ لَهَا بالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا

مَرَاجِيعُ وَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ[86]

وإذا اعتمدنا المعيار الكمي، نجد الشاعر يكثر في هذين البيتين من استعمال حرف الميم إكثارا يلفت الانتباه؛ ولا شك أن وراء هذا التكرار دلالة ومغزى أراد الشاعر إيصالهما للمتلقي؛ خصوصا أنه "أخرج الكلام في معرض الشك ليدل بذلك على أنه لبعد عهده بالدمنة وفرط تغيرها لم يعرفها معرفة قطع وتحقيق"[87].

والملاحظ أن حرف الميم بالإضافة إلى قيمته الموسيقية، يساهم في هذا المعنى، "ولا يشك أحد في أن للحروف –كأصوات لغوية مجردة– نوعا من الدلالة (ولا يبعد أن تكون اللغات البشرية جميعها لغات مقطعية في الأصل)، ولكن هذه الدلالة المستقلة تضعف حين تدخل الحروف في تركيب أكبر منها وهو الكلمة، وكذلك شأن الكلمة بالنسبة للجملة، والجملة بالنسبة إلى سياقها الخاص وهو القطعة"[88].

---

[83] - الطروق: المجيء بالليل.

[84] - المرشد، ج 2، ص: 546. أنظر شعر زهير .. ص: 74.

[85] - شعر زهير .. ص: 9. شرح المعلقات السبع، ص: 105.

[86] - نواشر: عصب الذراع.

[87] - شرح المعلقات السبع، ص: 104.

[88] - شكري محمد عياد، اللغة والإبداع: مبادئ علم الأسلوب العربي، إنترناشيونال برس، ط 1، 1988، ص: 126.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومن هنا نلاحظ أن سمة التكرار تتجاوز مستوى الحروف إلى الكلمات أو الألفاظ[89] على نحو ما نقف عليه في معلقته:

بَكَرْنَ بُكُوراً واسْتَحَرْنَ بِسُحْرَةٍ

فَهُنَّ لِوَادِي الرَّسِّ كَالْيَدِ لِلْفَمِ[90]

وَفِيهِنَّ مَلْهًى لِلَّطِيفِ وَمَنْظَرٌ

أَنِيقٌ لِعَيْنِ النَّاظِرِ المتَوَسِّمِ[91]

وقوله أيضا:[92]

جَرِيءٍ مَتَى يُظْلَمْ يُعَاقِبْ بِظُلْمِهِ

سَرِيعاً وَإِلاَّ يُبْدَ بالظُّلْمِ يَظْلِمِ

ولا يخفى ما في هذا البيت من تكرار لفظة ظلم ومشتقاته.

إن التكرار من حيث هو سمة شعرية تضفي على البناء العام للقصيدة قيمة موسيقية، من خلال تكرار الحروف (حروف القافية والروي) والألفاظ كذلك؛ فإنها من ناحية أخرى تعمل على تقوية المعاني حسب الأغراض الشعرية، خصوصا "أن المفيد من التكرار يأتي في الكلام تأكيدا له، وتشييدا من أمره، وإنما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشيء الذي كررت فيه كلامك؛ وإنما مبالغة في مدحه أو ذمه"[93].

ومن مظاهر سمة التكرار في شعر زهير تكرار أسماء النساء والمواضع التي يوظفها الشاعر في المقدمات الطللية والنسيبية؛ "فتكرار المواضع له من الأثر ما لتكرار أسماء النساء، ومن طلب هذا التأثير السحري ما أكثر الجاهليون من تعدد أسماء المياه والمضارب والمراعي والمراحل، ولعلك أن تقول إن زهيرا حيث قال:

مَازِلْتُ أَرْقُبُهُمْ حَتَّى إِذَا سَلَلتْ

---

[89] - بخصوص تكرار الألفاظ، أنظر معلقة زهير في شرح المعلقات السبع للزوزني، ص: 107-108-113-114-121-123-126.

[90] - نفسه، ص: 110. استحر: سار سحرا.

[91] - نفسه، ص: 110. اللطيف: المتأنق. التوسم: التفرس.

[92] - نفسه، ص: 121.

[93] - ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت 1990، ص: 147.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أَيْدِي الرُّكَابِ بِهِمْ مِن رَاكِسٍ فَلَقَا[94]

دَانِيَةً لِشَرَوْرَى أَوْ قَفَا أَدَمِ

تَسْعى الحُدَاةُ عَلى آثَارِهِم حِزَقَا[95]

لعلك تقول إن زهيرا كان يصف رحلة قد حدثت، وليس في قوله "راكس" و"شرورى" و"أدم" من تكرار، وإنما إخبار بما حدث ليس إلا، وأنا لا أنكر أن زهيرا وأضرابه كانوا

يستمدون من تجارب السفر حين يذكرون هذه المواضع"[96].

فتكرار هذه المواضع والأسماء في بدايات القصائد، يروم الشاعر من خلالها إشاعة روح الحنين والشوق إلى الأهل والأحبة، وتأكيدا لإحساسه بالحزن واليأس من جراء ما أصاب تلك الديار من عوامل الاندثار والتغير، وخلو المكان من الأحبة، ورغبة منه في إثارة إحساس القارئ/المتلقي ودعوته إلى التفاعل المباشر مع شعره.

وتكرار المواضع وأسماء النساء في الشعر الجاهلي عامة، يرتبط بقيمة رمزية عبر عنها العديد من النقاد بألفاظ مختلفة، يقول ابن رشيق: "وللشعراء أسماء تخف على ألسنتهم، وتحلو في أفواههم؛ فهم كثيرا ما يأتون بها زورا، نحو ليلى، وهند، وسلمى.. وأشباههن"[97].

كما أشار بعض النقاد إلى استغلال الأبعاد الرمزية لهذه الأسماء من قبل الشعراء حيث "بلغ بهم أن ارتضوا أسماء من أعلام النساء، فجعلوها كنايات ثابتة، مثل سعدى، وأسماء،

وفاطمة، والرباب، وسلمى؛ وأشهر هذه الأعلام ليلى"[98].

إن ذكر هذه الأسماء والمواضع يتجاوز نطاق الواقع، ليخلق عالما تخييليا ورمزيا، يروم الشاعر من خلال إيهام القارئ بصدق تجاربه العاطفية، وشدة شوقه لمحبوبته وتعلقه بها، ويتعدى ذلك إلى بناء رؤية فنية وجمالية يقوم عليها الشعر أساسا؛ بمعنى آخر "أن

---

[94] - الركاب: الإبل التي يرحل بها. راكس: اسم واد. الفلق: المطمئن من الأرض.

[95] - شرورى وأدم: موضعان. الحداة: السائقون للإبل. الحزق: الجماعات.

[96] - المرشد، ج 2، ص: 524.

[97] - العمدة، ج 2، ص: 121–122.

[98] - المرشد، ج 3، ص: 1033.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الشعراء الجاهليين أنفسهم، لم تكن تجاربهم العاطفية التي يتحدثون عنها في أوائل قصائدهم، تجارب حقيقية دائما، على الرغم مما يطبعها من طابع الواقعية التي تتمثل في ذكر أسماء المواضع والمراعي والمرابع ونحوها"[99]، وإنما هو –إذا صح التعبير– تقليد صار عليه الشعراء وأملته عليهم طبيعة القصيدة وأسلوبها وصورها وموسيقاها، باعتبار الشعر صناعة بلاغية تتطلب توفير وسائل فنية وموضوعية.

4- الصدق:

اختلفت مواقف النقاد في النظر إلى الشعر من حيث صدقه وكذبه، وتباينت تأويلاتهم إزاءه، فمنهم من فضل الصدق واعتد به ومنهم من رأى أن "أحسن الشعر أكذبه"؛ ونحن هنا لا يهمنا الخوض في هذه الإشكالية، بقدر ما ينصرف اهتمامنا إلى معالجة سمة شعرية ميزت المعاني الشعرية عند زهير؛ وهي سمة الصدق.

تشير أغلب الدراسات إلى أن زهيرا اتخذ قصيدة المديح فنا شعريا برع فيه، وعمل على توفير جميع الوسائل الفنية والموضوعية للرقي به، حتى عد إماما فيه؛ يقول ابن رشيق: "حكى الأصمعي عن ابن أبي طرفة: كفاك من الشعر أربعة: زهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب، وعنترة إذا كلب، وزاد قوم: وجرير إذا غضب"[100].

يشير هذا النص إلى أهم الأسباب الداعية إلى المديح وهي الرغبة؛ فقد ارتبط مدح الرجال بالرغبة في التكسب، إذ أن "مع الرغبة يكون المدح والشكر"[101].

وإذا كان المديح وصفا للرجال، فإنه قد يفرض التعلق الشديد بالصدق واعتماده في وصف القيم الإنسانية والفضائل العامة، وتسجيل الوقائع والأحداث؛ يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن زهير: "إنه كان لا يعاظل بين الكلام، ولا يتبع وحشيه، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه"[102]. وفي رواية أخرى "ولم يمدح أحدا إلا بما فيه"[103].

---

[99] - الاتباع والابتداع في الشعر الأموي، ص: 99.

[100] - العمدة، ج 1، ص: 95.

[101] - نفسه، ج 1، ص: 120.

[102] - طبقات فحول الشعراء، ج 1، ص: 63.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عمد زهير في قصائده المدحية إلى الصدق فيما يصفه من أحداث ووقائع، وما يتناوله من مدح الشخصيات، حيث كان يختار من المعاني والصور ما يلائم شخصية الممدوحين؛ فقد اضطرته مناسبة القول في أكثر من مرة إلى أن يعتد بالصدق ويفضله على الكذب والمبالغة والتخييل؛ خصوصا أن الشاعر يرجع "إلى القول الكاذب حيث يعوزه الصدق والمشتهر بالنسبة إلى مقصده في الشعر... فيضطر حينئذ إلى استعمال الأقاويل الكاذبة"[104] التي كان زهير يبتعد عنها، ويهدف إلى المشتهر من القيم في عصره؛ يقول في مدح هرم بن سنان:[105]

قَدْ جَعلَ المُبْتَغُونَ الخَيْرَ، فِي هَرَمٍ

والسَّائِلُون، إلى أَبْوَابِهِ، طُرُقَا

إنْ تَلْقَ يَوْماً، على عِلاَتِهِ، هَرِماً

تَلْقَ السَّمَاحَةَ، مِنْهُ، والنَّدَى خُلُقَا[106]

فصدق في مدحه، بأن وصفه بالكرم والسخاء وحسن الخلق والسماحة، وكلها معان متجلية في الشخصية الجاهلية، واستمرت هذه المعاني من بعده باعتبارها تشكل قيما إنسانية عليا.

تستمد أشعار المدح عمقها من محاولة رسم صورة عامة للقيم الأخلاقية؛ وتتوقف القيمة الفنية والإبداعية للقصيدة، وفق هذا المنظور، على مدى قدرة الشاعر على استيعاب تلك القيم وتمثيلها كأنها حقيقة قائمة أمام ناظريه؛ "فقد كان الشاعر في القديم ينزل منزلة النبي، فيعتقد قوله ويصدق حكمه، ويؤمن بكهانته"[107]، لما كان له من دور في إضفاء طابع المشروعية على أفعال الممدوحين في قومهم، ومساندتهم في الصلح بين عشائرهم.

يقول زهير بن أبي سلمى في مدح سنان بن أبي حارثة:[108]

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ، حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ

---

[103] - الأغاني، ج 10، ص: 298-299.

[104] - المنهاج، ص: 72.

[105] - شعر زهير... ص: 76.

[106] - على علاته: على قلة مال أو عُدْمٍ.

[107] - المنهاج، ص: 124.

[108] - شعر زهير... ص: 42.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وَأَنْدِيَةٌ، يَنْتَابُهَا القَوْلُ، وَالفِعْلُ[109]

فمدحهم بحسن المقام لحرصهم على الخير والصلح بين الناس، وجميل قولهم والعمل به؛ "ولما استتم وصفهما بحسن المقال، وتصديق القول بالفعل، وصفهم بحسن الوجوه"[110]. ثم واصل قوله:

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِم

وَعِنْد المقِلِّينَ السَّمَاحَةُ وَالبَذْلُ[111]

فزاد في ذكر كرمهم بما يعطوا إذا قصدت أغنياءهم، بل يتجاوز ذلك إلى فقرائهم، فوصفهم بالسماحة والعطاء، وكلها معان يتداولها الفحول من أمثاله، ويستندون فيها إلى الصدق؛ "والذي يدل على أن مذهب أكثر الفحول ترجيح الصدق في أشعارهم على الكذب ما روي عن الحَرُورِية امرأة عمران بن حطّان الخارجي أنها قالت له يوما: أنت أعطيت الله عهدا ألا تكذب في شعرك، فكيف قلت:

فَهُنَاكَ مَجْزَءَةُ بْنُ ثَوْ

رٍ كَانَ أَشْجَعَ مِنْ أُسَامَهْ

فقال: يا هذه إن هذا الرجل فتح مدينة واحدة، وما سمعت بأسد فتح مدينة قط"[112].

ويقول زهير أيضا:

إِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْل بُيُوتِهِمْ

مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِأَحْلاَمِهَا الجَهْلُ[113]

"فوصفهم بالحلم"[114]، وسداد الرأي وحلمه وبيان ما أشكل من الأمور.

ثم قال:

وَإِنْ قَامَ، فِيهِمْ، حَامِلٌ قَالَ قَاعِدٌ

---

[109] - مقامات وأندية: مجالس. ينتابها: يقصدها.

[110] - الصناعتين، ص: 117.

[111] - شعر زهير... ص: 42. على مكثريهم: أغنيائهم. يعتريهم: يقصدهم.

[112] - تحرير التحبير، ص: 150.

[113] - شعر زهير...ص: 43. قد يشفى بأحلامهم الجهل: أي من شاهد مجالسهم يحلم، وإن كان جاهلا.

[114] - الصناعتين، ص: 117.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رَشَدْتَ، فَلاَ غُرْمٌ عَلَيْكَ، وَلاَ خَذْلُ[115]

"فوصفهم أيضا بالتضافر والتعاون"[116] والتشاور"فلما أتاهم هذه الصفات النفسية"[117] التي يتحلون بها ذكر فضائل آبائهم ليؤكد صدق وصفه هذا فقال:[118]

فَمَا يَكُ، مِنْ خَيْرٍ، أَتَوْهُ فَإِنَّمَا

تَوَارَثَهُ آباءُ آبَائِهِمْ قَبِلُ

وَهَلْ يُنْبِتُ الخَطِّيَّ إلاَّ وَشِيجُهُ

وَتُغْرَسُ، إلاَّ فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ

فرجع صدق وصفه السابق إلى ما كان يتحلى به أجدادهم وآباؤهم من الصفات الحميدة، شكلت في مجموعها مجدا تليدا توارثه هؤلاء الأبناء، وعملوا على ترسيخه فيما بينهم.

إن أهم ما يلفت نظر القارئ في هذه الأبيات أنها لا تستعين بالحلة البيانية بقدر ما تستعين بالأسلوب الصريح المدعوم بعمق الرؤية والصدق؛ فزهير يصدر عن نبع واحد هو افتتانه بالصدق في كل ما يقول، ويمهد كل السبل لتحقيقه.

لكن ألا يمكن القول إنه يخرج في بعض الأحيان من الصدق إلى اعتماد الكذب أو المبالغة في الوصف؟ قد يقع ذلك، إلا "أن هؤلاء الفحول وإن رجحوا هذا المذهب لا يكرهون ضده، ولا يجحدون فضله، وقلما تخلو بعض أشعارهم منه، إلا أن توخي الصدق كان الغالب عليهم، وكانوا يكثرون منه"[119].

لقد أدرك زهير أن الوصف بالقيم الإنسانية لن يتم إلا باعتماد الوضوح، والإصابة في الوصف، والاستناد إلى التصوير اللغوي، لهذا راح يعتمد على ألفاظ اللغة وأساليبها؛ "وما الإصابة في الوصف إلا حالة التشاكل التام بين الدال والمدلول، ومن هنا أشاد المرزوقي بزهير بن أبي سلمى، لأنه لا يمدح الرجل إلا بما يكون للرجال"[120].

---

[115] - شعر زهير... ص: 43. فلا غرم عليك: أي تنفذ ما تحملت ونصوب رأيك.

[116] - الصناعتين، ص: 117–118.

[117] - نفسه، ص: 117–118.

[118] - شعر زهير.. ص: 43–44.

[119] - تحرير التحبير، ص: 150.

[120] - المشاكلة والاختلاف، ص: 59.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وإذا كانت سمة الصدق مرتبطة بأهم القيم الإنسانية التي يُمدح بها الرجال، "فإن حازما قد ذهب إلى أبعد من ذلك حين قاس وقوع الصدق والكذب في الشعر بورود الألفاظ العامية والحوشية والغريبة، وكذلك العذبة الخالية من العيب في الشعر نفسه"[121]. من هنا نستخلص أن اعتماد الصدق يتجاوز المدح بالمعاني الأخلاقية إلى الوسائل التعبيرية واختيار المعاني الملائمة، "فالصدق أيضا يعني السلامة من الخطإ في اللفظ والتركيب والمعنى، وهذه أمور لا بد من أن تتحقق في القصيدة[122]؛ فقد تبنى زهير في شعره كثيرا من سمات الصدق على مستويات عدة.

"ومما سبق إليه زهير فلم ينازع فيه قوله:

فَإِنَّ الحَقَّ مَقْطَعُهُ ثَلاَثٌ:

يَمِينٌ أَوْ نِفَارٌ أَوِ جَلاءُ

يريد أن الحقوق إنما تصح بواحدة من هذه الثلاث: يمين، أو محاكمة، أو حجة بينة واضحة؛ وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أنشد هذا تعجب من معرفته بمقاطع الحقوق"[123]، وصدقه في رصد حدود الحق وبيان خصاله.

هكذا يتبين أن "الصدق مقدم على الكذب في معظم أحواله، ولكنه لم يقدم لأنه أخلاقي وذاك غير أخلاقي؛ وإنما قدم لأنه أقدر على إثارة الانفعال من الكذب؛ فكونه مصدقا به يعطي الانفعال دفعة أقوى مما يعطيها إياه الكذب"[124] الذي لا يجعل القارئ يحس بتجليات نفسه الصادقة فيما يقرأ من معاني المدح والفخر.

5- المثل:[125]

---

[121] - محمد بن عبد الرحمن الهدلق، رأي حازم القرطاجني في قيمة الصدق والكذب في الشعر، ملتقى الدراسات المغربية والأندلسية، تيارات الفكر في المغرب والأندلس، الروافد والمعطيات، منشورات كلية الآداب بتطوان، المغرب 1993، ص: 60.

[122] - إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، بيروت، ط 3، 1981، ص: 34-35.

[123] - الشعر والشعراء، ج 1، ص: 85.

[124] - رأي حازم القرطاجني في قيمة الصدق والكذب في الشعر، ص: 62.

[125] - يمكن العودة بخصوص المثل إلى الصفحات التالية من شعر زهير، ص: 14-15-16-23-26-28-31-33-36-37-38-39-59-63-110-119-125-126-131-144-146-152-160-189...

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ارتبط الحديث عن المثل في الشعر بشخصية زهير، فقالوا عنه "من قدم زهيرا احتج بأنه كان أحسنهم شعرا.. وأكثرهم أمثالا في شعره"[126]. ولعل هذا القول ينطوي على حقيقة نقدية اتسمت بها أشعار زهير الذي عمد في شعره إلى الإكثار من الأمثال، مما يشكل سمة شعرية لاذ بها في بناء المعنى الشعري وتوضيح دلالته، وإضفاء الخصوصية على تلك المعاني؛ فالمثل من حيث هو سمة شعرية يتعدى وظيفته اللغوية إلى المساهمة في صياغة بلاغة الشعر والكشف عن جماليته.

وإذا كانت الأمثال نوعا من العلم منفردا بنفسه، لا يقدر على التصرف فيه إلا من اجتهد في طلبه حتى أحكمه، وبالغ في التماسه حتى أتقنه[127]، فإن المتأمل في شعر زهير عامة لا يغفل قدرته على التصرف في المعاني حسب الأغراض والانفعالات الوجدانية والنفسية ومناسبات القصائد؛ يقول في إحدى قصائده المدحية:

وَمَنْ يَعْصِ أَطْرَافَ الزِّجَاجِ فَإِنَّهُ

يُطِيعُ العَوَالِي، رُكِّبَتْ كُلَّ لَـهْذَمِ[128]

وإذا كان بعض الشعراء يعمدون إلى المحسنات البديعية من تشبيه واستعارة لتوضيح معانيهم، فإن زهيرا في هذا البيت يتوسل بالتصوير اللغوي المعتمد أساسا على ألفاظ اللغة وأساليبها وعلى المثل؛ "حيث أراد أن يقول –من أبى الصلح رضي بالحرب– فعدل عن لفظه وأتى بالتمثيل فجعل الزج –للصلح لأنه مقبل في الصلح– والسنان للحرب لأن الحرب به يكون"[129]و"كان في مثل هذا التمثيل بيان المعنى وكشفه"[130] ، فأخرج بذلك هذا المعنى المجرد وهو الصلح إلى معنى شعري ساهم المثل في تشكيله كما قلنا.

لكن ألا يمكن أن نستشف تعليلا نقديا في استناد زهير إلى المثل واعتماده في بناء المعاني الشعرية؟ الحق أن استثمار المثل يعبر عن قيمة الشاعر وقدرته المعرفية وثقافته الواسعة، "ذلك أن المثل له مقدمات وأسباب قد عرفت، وصارت مشهورة بين الناس معلومة

---

[126] - الأغاني، ج 10، ص: 322. طبقات فحول الشعراء، ج 1، ص: 64.

[127] - أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، عبد المجيد قطامش، دار الفكر، بيروت، ط 2، 1988، ج 1، ص: 5.

[128] - شعر زهير..ص : 27. العوالي: صدور الرماح. الزجاج: في أسفل الرماح.

[129] - الصناعتين، ص: 392.

[130] - سر الفصاحة، ص: 233.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عندهم، وحيث الأمر كذلك جاز إيراد هذه اللفظات في التعبير عن المعنى المراد"[131]، ولعل اعتماد المشهور من الأمثال أن يدعم المعنى الشعري الذي يتفنن فيه الشاعر حسب وجهة نظره من الكون والحياة ويكشف عن مقصديته؛ إذ إن نظم القصيدة يهدف إلى مجموعة من الأغراض والموضوعات، والتعبير عنها يتطلب توظيف كل الطاقة الإبداعية سواء على مستوى اللغة أو المثل نفسه.

يقول زهير في مقدمة قصيدة مدح بها هرم بن سنان[132]

إِنَّ الخَلِيطَ أَجَدَّ البَيْنَ فَانْفَرَقا

وَعُلِّقَ القلبُ مِنْ أَسْماءَ مَا عَلِقا

وَفَارَقْتُكَ بِرَهْنٍ، لاَ فِكَاكَ لَهُ

يَوْمَ الوَدَاعِ، فَأَمْسَى الرَّهْنُ قَدْ غَلِقا

فصور حالة قلبه الذي امتلكته أسماء فشبَّهه بالرهن، وعدل عن بيان هذا المعنى المجرد بالمثل، حيث "ضربه لذهابها بقلبه، واستيلائها عليه. وكان أهل الجاهلية إذا ارتهن الرجل منهم رهنا إلى أجل، فأتى الأجل ولم يفك الرهن صاحبُه، استوجب المرتهن عوضا من حقه، ولم يكن لصاحبه أن يفكك أبدا. فلذلك ضرب به زهير المثل"[133]. هكذا فضل زهير المثل على المعنى المباشر ودعم به معناه في الغزل ليصور درجة تعلقه بحبيبته التي جعلت قلبه مرتهنا لديها لا فكاك له منها.

إن المثل من حيث هو سمة شعرية يساهم في كشف المعنى، يفرض بالتالي صناعة خاصة وبلاغة متميزة. يقول "أبو سليمان: البلاغة ضروب، منها بلاغة الشعر، ومنها بلاغة الخطابة، ومنها بلاغة النثر، ومنها بلاغة المثل، ومنها بلاغة العقل، ومنها بلاغة البديهة، ومنها بلاغة التأويل"[134]، لذلك فلا عجب أن يعمل زهير على اختيار الألفاظ وتنقيحها، والتصرف في المعاني والافتنان فيها، واعتماد الإيجاز والوضوح، لما تفرضه بلاغة المثل التي تقتضي "أن يكون اللفظ مقتضبا، والحذف محتملا، والصورة محفوظة، والمرمى لطيفا،

---

[131] - المثل السائر، ج 1، ص: 41.

[132] - شعر زهير.. ص: 63.

[133] - نفسه، ص: 63

[134] - أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، المكتبة العصرية، بيروت، ج 2، ص: 140-141.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والتلويح كافيا، والإشارة مغنية، والعبارة سائرة"[135]؛ وكلها سمات أسلوبية يستدعيها الشعر باعتباره صناعة تقوم على العناية الدقيقة بالأسلوب واختيار المعاني والصور والإيقاع؛ فإيراد المثل إذن يقتضي تكثيف اللفظ وإبراز المعاني ويتطلب بلاغة خاصة؛ يقول زهير في مدح هرم بن سنان:[136]

إِنَّ البَخيلَ مَلُومٌ حَيْثُ كَانَ وَلَـ

ـكِنَّ الكَرِيَم عَلَى عِلاَّتِهِ هَرِمُ

ويقول أيضا:[137]

إِنْ تَلْقَ يَوْمًا، عَلَى عِلاَتِهِ هَرِمًا

تَلْقَ السَّمَاحَةَ، مِنْهُ، وَالنَّدَى خُلُقا

فاجتمع له في هذين البيتين حسن العبارة وجودة اللفظ، فوصف ممدوحه بالكرم والجود؛ وقيل قديما "أجود من هرم، وهو هرم بن سنان، وكان من أجود الناس"[138].

ومما يؤكد هذا الوصف ويجعله من العبارات السائرة، ما عرف به هرم من الجود والعطاء؛ فقد جعل "على نفسه ألا يسلم عليه زهير إلا أعطاه، فأشفق عليه زهير، فكان يمر بالقوم وهرم فيهم، فيقول: السلام عليكم دون هرم"[139].

هكذا وصف زهير هرما بالجود، وجعله مثالا متداولا بين الشعراء، واستطاع من خلال ذلك أن يجسد قيمة المعنى الذي يقصده وهو المدح، "لأن المدح إذا خرج مخرج المثل كان أَسْيَرَ في الأرض، وفي ضمن ذلك لهج الناس بالمدح الخارج مخرج المثل"[140]، لقيمته وشيوعه بينهم.

ومما يؤكد ابتداع زهير لهذه المعاني التي خرجت مخرج المثل، واتخذت منه أسلوبا فنيا في تحقيق جمالية الشعر وفنيته، ما أورده حازم في المنهاج حيث يقول: "وممن سبق

---

[135] - نفسه، ج 2، ص: 141.

[136] - شعر زهير.. ص: 104.

[137] - نفسه، ص : 76.

[138] - جمهرة الأمثال، ج 1، ص: 338.

[139] - نفسه، ج 1، ص: 339.

[140] - تحرير التحبير، ص: 390.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إلى وضع هذه المعاني المذهوب بها مذهب الحكمة والتمثل في نهاية الفصول ومقاطع القول فيها وسبك القول فيها أحسن سبْكٍ زهيرٌ، نحو ما تمثل به في آخر مذهبته:

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَة لمْ تَكَلَّمِ

ونحو ما ختم به آخر فصل من قصيدته اللامية. وذلك قوله:

فَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا

تَوَارَثَـهُ آبـاءُ آبَائِـهِمْ قَبْلُ

وَهَلْ يُنْبِتُ الخَطِّيَّ إلاَّ وَشِيجُـهُ

وَتُغْرَسُ إلاَّ فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ

ثم جاء أبو الطيب المتنبي في المولدين فولع بهذا الفن من الصنعة وأخذ خاطره به"[141].

إن تجليات المثل في شعر زهير يتجاوز في الحقيقة حدود فواتح القصائد وخواتمها، كما يتعدى غرض المدح إلى الغزل. فالمثل من حيث هو معنى مجرد قائم في أذهان الشعراء ومعروف في ثقافتهم، إلا أن توظيفه في سياقات مختلفة ووفق أغراض معينة ومقاصد متعددة يعد سمة شعرية وخصوصية، لما له من دور في تأكيد المعاني وإبرازها في صورة الكلام السائر؛ ولما كان الحال كذلك فإن إيراد المثل من شأنه أن "يزيد المنطق تفخيما ويكسبه قبولا، ويجعل له قدرا في النفوس وحلاوة في الصدور، ويدعو القلوب إلى وعيه، ويبعثها على حفظه، ويأخذها باستعداده لأوقات المذاكرة، والاستظهار به أوان المجادلة"[142].

من هنا كان استعمال المثل في الشعر عند زهير سمة شعرية ساهمت في إبراز المعاني وتحقيق بلاغة النصوص الشعرية، لما له من تأثير وضح في نفوس المتلقين ودعوتهم إلى التفاعل المباشر مع القضايا الفنية والموضوعية التي تحتويها القصائد.

- الفصل الثالث: الافتنان في التصوير البياني

تعد الصورة الشعرية أداة فنية يعبر الشاعر من خلالها عن أفكاره وعواطفه وانفعالاته، وينقل للمتلقي مشاهد حقيقية وخيالية تمتزج فيها الوصف الدقيق والتصوير الرائع.

---

[141] - المنهاج، ص: 301.

[142] - جمهرة الأمثال، ج 1، ص: 4.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وتأتي أهمية التصوير في العمل الشعري من كون الشعراء يختلفون في تصوير المعنى الفكري المجرد؛ بل تجد الشاعرين يتناولان المعنى الواحد، ويعمل كل واحد منهما على صياغته في قالب شعري، فنجد أحدهما "قد أتى بالمعنى غفلا ساذجا، وترى الآخر أخرجه في صورة تروق وتُعْجب"[143].

هكذا يتبين أن التصوير من أهم العناصر في العملية الشعرية، وأحد المعايير المعتمدة في الحكم على جودة الإبداع الشعري.

ولقد أدرك الشعراء هذه القيمة، فراحوا يعتمدون على التصوير، إيمانا منهم أن الشعر بدون تصوير، يفقد فنيته الإبداعية والجمالية.

وبما أن "الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير"[144]، قائم على أنماط متعددة منها ما هو بلاغي ومنها ما هو أسلوبي يستند إلى ألفاظ اللغة، فإن زهيراً عمل في قصائده على استثمار أنماط من الصور في سبيل تحقيق جمالية النصوص الشعرية. وبالإضافة إلى الوزن والقافية واختيار الألفاظ، نجد الشاعر يعتد بالتخييل باعتباره ضرورة جوهرية تكمن قيمته في إضفاء طابع الخصوصية والشاعرية على المعاني المجردة والمتداولة لتغدو معاني شعرية رائعة.

وقد عرف زهير بالتنقيح ودقة التصوير، إلا أن وسيلته في ذلك اختلفت حسب المواضيع؛ فتارة يتوسل بالصور البلاغية، وتارة أخرى يعتمد على ألفاظ اللغة وأساليبها.

يقول زهير:[145]

تَنَازَعَها المَهَا شَبَهاً، ودر النُّـ

ـحُورِ، وَشَاكَهَتْ فِيهَا الظِّبَاءُ[146]

فَأَمَّا مَا فُوَيْقَ العِقْدِ، مِنْها

فَمِنْ أَدْمَاءَ، مَرْتَعُهَا الخَلاءُ[147]

---

[143] - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 2، 1989، ص: 489.

[144] - الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت 1992، ج 3، ص: 132.

[145] - شعر زهير.. ص: 125–126.

[146] - المها: بقر الوحش. شاكهت: شابهت.

[147] - ما فويق العقد: عنقها. الأدماء: الظبية البيضاء

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وَأَمَّا المقْلَتانِ فَمِنْ مَهاةٍ

وَلِلدُّرِّ الملاحَةُ، والصَّفَاءُ

وقد جمع في هذه الأبيات ثلاث تشبيهات صور من خلالها جمال عين المرأة وجيدها، فشبههما بعين البقرة الوحشية وجيد الظبية، ثم كرر الصورة نفسها في البيت التالي، التالي، تأكيدا لهذا الوصف وهذا الجمال، ليعمد بعد ذلك إلى بيان أوجه التشابه بينهما في البياض والسواد والصفاء، "فهو كما ترى يشبهها بالدر والمها والظباء جملة، ثم يعود إلى تفصيل هذه التشبيهات فيبين وجوه الشبه فيها تصريحا لا تلميحا ولا إشارة"[148].

لكن المتأمل في هذه الأبيات يجد الشاعر قلب التشبيه رغبة منه في تحقيق مقصدية ما؛ إذ الأصل هو "تشبيه عين البقرة وجيد الظبي بعين المرأة وجيدها.. ولكن موضوع الشعر –وهو المرأة هنا مثلا– والرغبة في إظهار البلاغة والفطنة هما اللذان فرض على الشعراء قلب التشبيه، والعدول عن الأصل"[149]؛ ومن شأن ذلك أن يضفي على الشعر سمة الخصوصية التي تجلت أساسا في قلب الصورة أو النمط الذي اعتاد عليه القارئ في تشبيه عيون البقرة بعيون النساء.

إن زهيرا هنا يعتد بالتشبيه في تشكيل الصور وتأليف المعاني، ويعتمد على ألفاظ اللغة والافتنان في الأساليب خدمة لصناعة الشعر. ويقول في موضع آخر:[150]

وَدَارٌ لَهـا بِالرَّقْمَتَيْنِ، كَأَنَّها

مَرَاجِعُ وَشْمٍ، فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ

بها العِينُ، وَالأَرْآمُ، يَمْشِينَ خِلْفَةً

وَأَطْلاَؤُها يَنْهَضْن، مِن كُلِّ مَجْثِمِ[151]

فشبه الأطلال التي رحل أهلها عنها، بآثار الوشم في اليد، وجعل الوشم يتجدد وتكرر مرة بعد أخرى تأكيدا على ثباته ومقاومته لعوامل الزمن، وزاد في الوصف معتمدا جزالة اللفظ وجودة الأسلوب، فصور البقر الوحشي والظباء ترتع في تلك الديار مع ما تحدثه من حركة

---

[148] - طه حسين، حديث الأربعاء، دار المعارف، مصر، ط 12، ج 1، ص: 94.

[149] - محمد الأمين المؤدب، الاتباع والابتداع في الشعر الأموي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، المغرب، ط 1، 2002، ص: 458.

[150] - 150 – شعر زهير.. ص: 9–10. شرح المعلقات السبع ص: 105–106.

[151] - العين: بقر الوحش. الأرآم: الظباء الخالصة البياض. الأطلاء: ولد البقرة. المجثم: المربض.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

متخالفة، بحيث بعضها تذهب والأخرى تجيء، و"تنهض أولادها من مرابضها لترضعها أمهاتها"[152].

فزهير في هذين البيتين لا يكتفي بالتشبيه، بل يعمد إلى تسجيل الحركة من خلال اللغة، وما تقوم به من دور في خلق صورة تتسم بالتجدد والحركة "والشمول في الوصف، والتدقيق في الصورة، والعناية بالجزئيات والتفاصيل، كل ذلك.. لتأتي صورة كاملة معبرة وافية، فيها تحبير وتحقيق وتدقيق، وهذه أبرز صفات الصورة عند فحول الشعراء ومجيدهم"[153].

وإذا نحن استثنينا الصورة الأولى التي يشبه فيها الأطلال الخالية بأثر الوشم في اليد، نجد البيت الثاني يتضمن صورة تم التعبير عنها بألفاظ اللغة وأساليبها، فصور الظباء والبقر الوحشي وهي تتحرك في تلك الديار. وما من شك أن زهيرا لم يكتف بالتشبيه في بناء النص الشعري وتشكيل بلاغته، بل عمد إلى الاستعارة في أكثر من موضع، مثل قوله:[154]

صَحَا القَلْبُ عَنْ سَلَمَى وَأَقْصَرَ بَاطِلُه وَعُرِّيَ أَفْرَاسُ الصِّبَا وَرَوَاحِلُه

وقال أيضا:[155]

إذا سُدَّتْ بِه لَهَوَاتُ ثَغْرٍ

يُشَارُ إِلَيْهِ جَانِبُه سَقِيمُ[156]

وإلى جانب الصورة الشعرية القائمة على التشبيه، نجد طه حسين قد وقف على صورة أخرى قائمة على ائتلاف اللفظ والمعنى في شعر زهير؛ يقول: "وانظر إليه وهو يصور.. تتبعه لهؤلاء القوم المسافرين وفي لفظ بدوي جزل متين، وفي معان بدوية ساذجة كل السذاجة، يسيرة كل اليسر:

مَا زِلْتُ أَرْمُقُهُمْ حَتىَّ إذا هَبَطَتْ

أَيْدِي الرّكابِ بِهِمْ رَاكِسٍ فَلَقا

---

[152] - شرح المعلقات السبع، ص: 107.

[153] - يحيى الجبوري، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 3، 1982، ص: 218.

[154] - شعر زهير.. ص: 45.

[155] - نفسه، ص: 151.

[156] - لهوات ثغر: مداخله. جانبه سقيم: أي جانب الثغر مخوف.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

دَانِيَةً مِنْ شَرَوْرَى أَوْ قفا أَدَمِ

تَسْعَى الحُدَاةُ عَلَى آثَارِهِمْ حِزَقاً"[157]

فهذان البيتان لا يحتويان على صورة شعرية بمعنى التشبيه والاستعارة، بل نجد ملاءمة ملاءمة اللفظ للمعنى، فالشاعر يعتمد في تصوير ما يراه على لفظ بدوي جزل وعلى معان معان بدوية ساذجة؛ وهذا ما قصده طه حسين بالملاءمة؛ أي أن الشاعر جعل اللفظ البدوي للمعنى البدوي. "ومن ائتلاف اللفظ مع المعنى أن يكون اللفظ جزلا إذا كان المعنى فخما، ورقيقا إذا كان المعنى رشيقا، وغريبا إذا كان المعنى غريبا"[158].

إن زهيرا في شعره يمتح من بيئته كل ما يحتاج إليه لبناء صوره من دون غلو ولا إسراف. يقول طه حسين أيضا: "وزهير في هذه الأبيات يصور لهوه ولهو أصحابه في لفظ جميل يسير، وفي معان مقتصدة، لا غلو فيها ولا إسراف:

وَقَدْ أَغْدُو عَلَى ثُبَةٍ، كِرَامٍ

نَشَاوَى وَاجِدِينَ لمَا نَشَاءُ[159]

لهَمْ رَاحٌ، وَرَاوُوقٌ ومِسْكٌ

تُعَلُّ بِهِ، جُلُودُهُمُ وَمَاءُ[160]

يَجُرُّونَ البُرُودَ، وَقَدْ تَمَشَّتْ

حُمَيَّا الكَأسِ، فِيهِمْ وَالغِنَاءُ[161]

تَمَشَّى بَيْنَ قَتْلى، وَقَدْ أُصيبَتْ

نُفُوسُهُمُ، وَلَمْ تُهْرَقْ دِمَاءُ"[162]

---

[157] - حديث الأربعاء، ج 1، ص: 100. أنظر الأبيات في شعر زهير..ص: 135–136.

[158] - تحرير التحبير ص: 195.

[159] - الثبة: الجماعة من الناس.

[160] - الراح: الخمر. الراووق: المصفاة.

[161] - البرود: ثياب موشية. الكأس: الخمر. حمياها: سورتها وصدمتها في الرأس.

[162] - حديث الأربعاء، ج 1، ص: 109. أنظر الأبيات في شعر زهير..ص: 135–136. تمشى بين قتلى: تمشي بين سكارى فكأنهم قتلى. قد أصيبت نفوسهم: أذهب الخمر عقولهم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فالصورة هنا تشكلت نتيجة ملاءمة اللفظ للمعنى وحسن صياغته. فهذه الأبيات تعتمد على الإيجاز؛ ولعل هذه السمة أن تكون قد ساهمت في تشكيل الصورة الشعرية القائمة على التوفيق بين اللفظ والمعنى.

إن الصورة الشعرية في شعر زهير تتسم بالتعدد والاختلاف؛ فالشاعر ينوِّع في تشكيل معانيه وبناء نصه الشعري، فيعمد إلى التشبيه والاستعارة في بعض الأحيان، وإلى ملاءمة اللفظ والمعنى؛ بل يتجاوز ذلك في أحيان أخرى إلى الاعتماد الوصف والسرد؛ فزهير في بعض قصائده يسرد قصة الصيد بأسلوب ينمُّ عن دقة التصوير والصدق في الوصف. يقول طه حسين: "ثم يقص عليك الشاعر قصة الصيد، فاسمع له وانظر إليه، فهو يتحدث إلى أذنيك باللفظ، وهو يتحدث إلى عينيك بالصور:

إِذا مَا غَدَوْنَا، نَبْتَغِي الصَّيدَ مَرَّةً

مَتى نَرَهُ فَإِنَّنا لاَ نُخَاتِلُه

فَبَيْنَا نَبْغِي الصَّيْدَ جَاءَ غُلامُنَا

يَدِبُّ وَيَخْفِي شَخْصَهُ وَيُضَائِلُه

وانظر إلى هذا البيت الأخير، أو إلى هذا الشطر الأخير، وإلى صورة هذا الغلام الذي جاء ينبئهم بمكان الصيد وهو حذر محتاط، يدب ويخفي شخصه ويضائله، فأنت توافقني على أنها صورة قوية صادقة معجبة حقا"[163].

إن الشاعر يخاطب أذنيك باللفظ وعينيك بالصور، فهو يصور لك مشاهد من الطبيعة وكأنك تراها بالعين؛ فوصفه دقيق جدا. فهو مثلا عندما وصف هيئة الغلام، فصل في ذلك الوصف"يدب ويخفي شخصه ويضائله"، فوصف هيئته الخارجية وحالته النفسية في آن واحد.

إن الصورة الشعرية التي تعتمد على الوصف تجنح في أغلب الأحيان إلى التفصيل والتدقيق، باعتبارها سمتين جوهريتين لتحقيق جودة الوصف، مما يجعلها يسيرة، بسيطة وقريبة من أذهان الجميع، تعتمد الصدق في الرسم والتصوير.

هكذا يتضح إذن مدى غنى الصورة الشعرية وأهميتها البالغة في بناء النص الشعري وتشكيله والمساهمة في إضفاء الجمالية عليه.

---

[163] - نفسه، ج 1، ص: 104-105.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ختـامـــا:

لقد قصدنا من هذا البحث تحقيق هدف مركزي يتمثل في تقريب النص الشعري القديم من القراء، انطلاقا من النص نفسه، بالبحث عن جماليته، ومستويات بنائه الداخلي، وأسرار تأثيره في المتلقي. وقد تم ذلك من خلال بلاغة شعرية سميناها بلاغة الافتنان.

ومهما يكن من أمر، فقد قادتنا هذه الدراسة التحليلية إلى استخلاص جملة من النتائج نجملها فيما يلي:

– اعتبار بلاغة الافتنان من المفاهيم النقدية والشعرية ذات الصلة الإجرائية بفهم النص وتحليله، على نحو ما عرضنا له، في سائر فصول الدراسة.

– قدرة الشاعر زهير على الافتنان في الأغراض، حيث وجدناه في معلقته أو في غيرها من القصائد الأخرى ينوِّع في أغراض القصيدة الواحدة، سواء على مستوى الابتداء أو التخلص أو الخاتمة.

– الاعتماد على الافتنان في اختيار الألفاظ، والعبارات الشعرية، والأساليب البلاغية، جعل شعر زهير يتسم بالتعدد الأسلوبي الذي من شأنه أن يحقق للقارئ متعة فنية على خلاف النهج على منوال أسلوبي واحد، وتأسيسا على هذا تميَّز أسلوب زهير بالجزالة واعتماد الصدق وتوظيف المثل وغير ذلك ... وكلها سمات أسلوبية تكوِّن بلاغة الافتنان.

– استثمار زهير لأنماط متعددة من الصور الفنية تراوحت بين صور بلاغية معروفة مثل التشبيه والاستعارة، وصور لغوية قائمة أساسا على ألفاظ اللغة وأساليبها، وهذا الاختيار نابع من صميم بلاغة الافتنان التي تتأسس على مبدإ الاختلاف داخل النص الشعري الواحد أو في غيره من النصوص، وقد أكد صاحب منهاج البلغاء على "أنه لا يحسن في الكلام جميعا أن يكون مستمرا على نمط واحد، لما فيه من التكلف، ولما في الطبع من الملل عليه" ص: 388.

قائمة المصادر والمراجع

أ– المصادر:

– ابن أبي الإصبع المصري، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تقديم وتحقيق حنفي محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة التراث الإسلامي، الجمهورية العربية المتحدة (د.ت).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

- ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت 1990.
- ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء (د.ت).
- ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة (د.ت).
- ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1982.
- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار الثقافة بيروت (د.ت).
- أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، المكتبة العصرية، بيروت (د.ت).
- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق وإشراف لجنة من الأدباء، المجلد 10، دار الثقافة بيروت، ط 5، 1981.
- أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، عبد المجيد قطامش، دار الفكر بيروت، ط 2، 1988.
- أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق محمد قميحة، دار الكتب العلمية، ط 1، 1981.
- الإمام الزوزني، شرح المعلقات السبع، تحقيق محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، بيروت، ط 1، 1998.
- الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت 1992.
- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 3، 1986.
- شعر زهير بن أبي سلمى، صنعة الأعلم الشنتمري، تحقيق فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 3، 1980.
- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 2، 1989.
- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، ط 3 (د.ت).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

– المرزوباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر، تحقيق على محمد البجاوي، دار الفكر العربي 1965.

ب– المراجع:

– إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، بيروت، ط 3، 1981.

– شكري محمد عياد، اللغة والإبداع: مبادئ علم الأسلوب العربي، أنترناشيونال برس، ط 1، 1988.

– طه حسين، حديث الأربعاء، دار المعارف، مصر، ط 12 (د.ت).

– عبد الله الطيب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، دار الفكر، بيروت، ط 2، 1970.

– عبد الله محمد الغذامي، المشاكلة والاختلاف، المركز الثقافي العربي، بيروت–البيضاء، ط 1، 1994.

– محمد الأمين المؤدب، في بلاغة النص الشعري القديم، معالم وعوالم، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، المغرب، الطبعة الأولى 2010.

– محمد الأمين المؤدب، الاتباع والابتداع في الشعر الأموي القصيدة المادحة أنموذجا، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، المغرب، ط 1، 2002.

– محمد عبد العزيز الكفراوي، الشعر العربي بين الجمود والتطور، دار القلم، بيروت، ط 2، (د.ت).

– يحيى الجبوري، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 3، 1982.

ج– المقالات:

– محمد الأمين المؤدب، النص الشعري القديم وبلاغة الافتنان، مجلة الصورة، السنة الخامسة، العدد الخامس، المغرب، شتاء 2003.

– محمد أنقار، البلاغة والسمة، مجلة فكر ونقد، العدد 25، المغرب، يناير 2000.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

– محمد بن عبد الرحمن الهدلق، رأي حازم القرطاجني في قضية الصدق والكذب في الشعر، ملتقى الدراسات المغربية والأندلسية، تيارات الفكر في المغرب والأندلس، الروافد والمعطيات، منشورات كلية الآداب بتطوان، المغرب 1993.